ثقة المتكلم بفهم السامع وأثرها في بناء الكلام

The confidence of the speaker in the understanding of the listener and its effect on the construction of speech

د. عمر بورنان

Dr. BOURANANE Amar
o.bournane@univ-bouira.dz: Email
جامعة العقيد أكلي محند أولحاج/ الجمهورية الجزائرية

الملخص:

هدف المتكلم من توجيه الخطاب إلى السامع في حالة الإخبار هو الإفهام، لذلك ينظم كلامه بطريقة مخصوصة تضمن هذا الهدف، فيتبع من أجل ذلك قواعد اللغة التي يستعملها، وفي بعض الأحيان؛ يلاحظ المتكلم أن للسامع القدرة على الفهم وإن خرج في نظمه على أصل التركيب العربي. وهذا ما تنبه إليه علماء العربية القدامى فعللوا كثيرًا من الظواهر التركيبية **بثقة المتكلم بفهم السامع** دون أن يوضحوا هذه العبارة توضيحًا شافيًا. فأردت في هذا المقال أن أضع أمام القارئ صورة واضحة لثقة المتكلم بفهم السامع وأبين أثرها في نظم الكلام، فتتبعت هذه العبارة في الكتب التراثية: النحوية والبلاغية وكتب التفسير، واستخرجت أمثلة عن أثر ثقة المتكلم بفهم السامع في النظم، فتحصلت على ما يلي:

- يثق المتكلم بفهم السامع اعتمادًا على قرائن يلحظها.
- يعيد السامع بناء الكلام ليصل إلى المعنى الذي قصده المتكلم.
- يلجأ المتكلم إن وثق بفهم السامع إلى خمس حالات من النظم هي: اللف والنشر، الحذف، الإضمار، التصرف في العدد، التوسع في معاني الألفاظ.

الكلمات المفتاحية: المتكلم، السامع، الفهم، الثقة.

:Abstract

The aim of the speaker in directing the speech to the listener, in the case of informing, is to understand, so he organizes his speech in a way that includes this aim, so he follows the rules of the language he uses, and sometimes, the speaker notices that the listener has the ability to understand even if he comes out in his systems based on the Arabic syntax. And this is what the ancient Arab scholars alerted to, and they did many compositional phenomena with the confidence of the speaker with the understanding of the listener without making this phrase clear enough. In this article, I strove to put in front of the reader a clear picture of the speaker's confidence in the listener's understanding and show its impact on speech systems. So, I followed this phrase in the grammatical and rhetorical heritage books and exegesis books and extracted examples of the impact of the speaker's confidence in the hearer's understanding of the systems, and I obtained the following:

- The speaker trusts the listener's understanding based on clues that he perceives.
- The listener reconstructs speech to arrive at the meaning intended by the speaker.
- The speaker, if he trusted the listener's understanding, resorted to five states of the system, which are: wrapping and spreading, deleting, ellipsis, disposing of number, expanding the meanings of words.

:Keywords The speaker, The listener, Understanding, Confidence.

مقدمة:

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعدُ: فإن المتكلم يوجه كلامه إلى السامع ليخبره بشيء لا يعلمه، أو ليطلب منه شيئًا كأن يسأله أو يأمره أو ينهاه وما شابه ذلك، وهو في الحالتين ينشُد إفهامه مستعملًا ما تمنحه اللغة من إمكانات للإفهام، وله الحرية في بناء كلامه بما يراه يتناسب ومستوى السامع، وما يتلاءم مع المقام الذي يوجه فيه خطابه إليه، وقد لاحظ علماء العربية القدامى أن المتكلم يتصرف في كلامه حسب فهم السامع، وعللوا كثيرًا من الظواهر النحوية والبلاغية بعبارة **(ثقةً بفهم السامع)** التي يكررونها في كتبهم، وهذه العبارة وإن كانت تظهر في أول الأمر واضحة مفهومة فإنها تثير في الذهن أسئلة أبرزها:

- ما الذي يقصده اللغويون القدامى بقولهم: (ثقةً بفهم السامع)؟
- ما الذي يجعل المتكلم يثق بفهم السامع؟
- ما أثر ثقة المتكلم بفهم السامع في بناء الكلام ونظمه؟

وإني أفترض في بداية المقال أن المتكلم يميز ما يمكن أن يفهمه السامع مما لا يفهمه اعتمادًا على قرائن يلاحظها أثناء الخطاب. وأنه ينظم كلامه بطريقة مخصوصة بناء على ثقته بفهم السامع أو عدم ثقته حرصًا منه على وصول الرسالة.

ولإثبات ما افترضته أو نفيه، قمت بتتبع تعليل علماء العربية القدامى والمحدثين اختيار المتكلم نظمًا معينًا بثقته بفهم السامع، واقتصرت في كل حالة على ما قل ودل من الأمثلة تجنبًا للإطناب في الكلام بغير فائدة.

ولم أجد بحثًا مستقلًا تناول هذا الموضوع، وإنما وجدت النحاة والبلاغيين والمفسرين قدماء ومحدثين يتناولون الموضوع في أبواب مختلفة من كتبهم، فحاولت في هذا المقال تبيين الأبواب النحوية والبلاغية التي تحدث فيها علماء العربية عن (ثقة المتكلم بفهم السامع) وشرح ما ينجم عن تلك الثقة من تصرف في نظم الكلام ليجدها القارئ الكريم مجموعة في أوراق معدودة وقد كانت متفرقة في بطون الكتب، وبالله التوفيق.

١. علاقة المتكلم بالسامع: يقتضي منهج البحث الأكاديمي بيان معنى المصطلحين: **(المتكلم)** و**(السامع)** لورودهما في العنوان، وإن فعلت ذلك أكون قد شرحت واضحًا، وبينت معلومًا، فوقعت عند العارفين في المحظور، وجانبت البلاغة في القول للإسهاب في ما يمكنني تجاوزه، لذلك رأيت أن أذكر عوضًا عنه كلامًا يتضح به – بإذن الله تعالى– قدرة السامع على الفهم ما يجعل المتكلم يثق به، ثم أبين صنيع المتكلم في نظم كلامه إن هو وثق بفهم السامع ولم يخش حدوث اللبس والإبهام لديه، أو غموض الفكرة وصعوبتها عليه.

نظرًا لوحدة نظام الاتصال بين المتخَاطِبَيْنِ، وعلمهما المشترك بما يحيط بهما، يفهم الواحد منهما المقصود من كلام صاحبه بما قل من الألفاظ، حتى يفهم السامع معنى الكلمة بسماعه الحرف الأول منها، قال سيبويه (ت١٨٠هـ): «وسمعت من العرب من يقول: ((ألا تَا، بلى فَا))؛ فإنما أرادوا ألا تفعل وبلى فافعل[i]»، وسبب الفهم كما ترى هو علم الواحد منهما بما يكنه الآخر من قول قبل النطق، فقد ذكر المبرد (ت٢٨٥هـ) قصة هذا النص فقال: «... ولكن الأصمعي قال: كان أخوان متجاوران لا يكلم كل واحد منهما صاحبه سائر سنته حتى يأتي وقت الرّعي، فيقول أحدهما لصاحبه: ألا تا، فيقول الآخر: بلى فا، يريد ألا تنهض؟ فيقول الآخر: بلى فانهض[ii]» وقد يتفاهم الشخصان من غير لفظ، وفي ذلك قال الشاعر:

أَشَارَتْ بِطَرْفِ العَيْنِ خِيفَةَ أَهْلِهَا ** إِشَارَةَ مَحْزُونٍ وَ لَمْ تَتَكَلَّمِ

فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَباً ** وَأَهْلاً وَ سَهْلاً بِالحَبِيبِ المُتَيَّمِ[iii]

وقد ورد في القرآن الكريم الكثير مما يصلح الاستشهاد به في هذا الباب كقوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ﴾ (البقرة: ٦٠) فيفهم قارئ الآية أن موسى عليه السلام استسقى الله عز وجل، وأنه قد ضرب الحجر عندما أمر بذلك، فلما انفجرت العيون علم كل أناس من قوم موسى مشربهم لا من غيرهم، وكل ذلك لم يذكر في الآية الكريمة، ولكنه معلوم مفهوم، وبهذا يتضح لك أيها القارئ الكريم، أن للسامع القدرة على فهم مقصود المتكلم، وأن المتكلم يعرف ذلك، فيثق بفهم السامع فينظم كلامه انطلاقًا من تلك الثقة، وما أود أن أبينه في هذه الورقة البحثية أثر هذه الثقة في بناء الكلام.

٢. **أثر ثقة المتكلم بفهم السامع في النظم:** عندما يثق المتكلم بفهم السامع يخاطبه بأريحية، ويلقي إليه الكلام وفي نظمه شيء يحتاج إلى إعمال الفكر للوصول إلى المعنى المقصود، وقد أحصيت خمس ظواهر لغوية تنتج عن ثقة المتكلم بفهم السامع هي:

أ. **اللف والنشر:** يسميه بعض البلاغيين الطي والنشر، وهو أن يجمع المتكلم في بداية كلامه شيئين أو أكثر ويخبر عنهما في نهاية كلامه، وإنما يفعل ذلك لعلمه بأن السامع يميز خبر الأول من خبر الثاني، قال المبرد: «والعرب تلف الخبرين المختلفين، ثم ترمي بتفسيرهما جملة، **ثقة بأن السامع يرد إلى كلٍّ خبره**، وقال الله عز وجل: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص: ٧٣)[iv]» فذكر سبحانه في بداية الآية الليل والنهار، وذكر في آخرها ما يصلح لكل واحد منهما من السكون وطلب الرزق، وللسامع القدرة على نسبة كل منهما إلى ما يصلح له اعتمادًا على العُرف، وكذلك فعل الشعراء، قال امرؤ القيس (ت٨٠ق. هـ):

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا*** لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ وَالحَشَفُ البَالِي[v]

قال البطليوسي (ت٥٢١هـ) مبينًا أصل النظم في هذا البيت: «ولو جاء هذا الكلام مفصلًا لقال: كأن قلوب الطير رطبًا: العناب، ويابسًا: الحشف البالي[vi]» وإنما عدل عن الأصل إلى اللف والنشر لثقته بأن السامع يعرف بأن العناب رطب، والحشف البالي يابس، فلا يخفى عليه حينئذ المقصود من الكلام، ومثله ما قاله ابن الأفليلي (ت٤٤١هـ) في قول المتنبي (ت٣٥٤هـ):

«أَحْسَنُ مَا يُخْضَبُ الحَدِيدُ بِهِ *** وَخَاضِبَيهِ النَّجِيعُ وَالغَضَبُ

فيقول: أحسن ما يخضب به الحديد، وأحسن خاضبَيه النجيع والغضب؛ يريد: أحسن ما يخضب به الحديد النجيع، وأحسن خاضبيه الغضب، فجمع بين الخبرين والمخبر عنهما، **ثقة بفهم السامع**. والعرب تفعل ذلك[vii]» والأمثلة عن ذلك أكثر من أن تحصى، وتعدادها في هذا الموضع من التكرار الذي لا فائدة منه، ولا بد لي من بيان أمرين اثنين متعلقين بهذا الموضوع، وهما:

– **الأمر الأول:** الطي والنشر في العربية في كثير من الحالات شبيه بما يسمى في علم الجبر بالعامل المشترك، وسأمثل لذلك بقول المتنبي وبمعادلة رياضية ليتمكن القارئ الكريم من المقارنة، وليكون الأمر لديه أبين وأوضح:

- **بيت المتنبي: أَحْسَنُ** × (مَا يُخْضَبُ الحَدِيدُ بِهِ وَخَاضِبِيهِ النَّجِيعُ+ وَالغَضَبُ)= (**أحسن** × ما يخضب به الحديد النجيع) +(**وأحسن** × خاضبيه الغضب)
- **المعادلة الرياضية:** ٥× (٣+٧)= (٥ ×٣)+ (٥ ×٧)

مع ما تراه من اختلاف طفيف بين اللغة والرياضيات غير أن التشابه كبير جدًّا، وهذا يحتاج إلى تفكير من السامع وتدبر، إذ يورد المتكلم الكلام مجملًا، ويعمد السامع إلى التفصيل ليفهم المعنى المقصود اعتمادًا على ما يملكه من معلومات عن المتكلم وعن الموضوع المتحدث عنه، وما يتمتع به من قدرات عقلية وفكرية تمكنه من التحليل والاستنباط.

– **الأمر الثاني:** لو تأملت أيها القارئ الكريم، لوجدت المتكلم لم يكرر كلمة (**أحسن**) نظير العدد ٥ في المعادلة الرياضية، والسامع هو الذي يفهم بأنها مكررة، وهذا يعني أن السامع يعيد نظم الكلام في ذهنه بناء على ما يملكه من معطيات، ولو لم يثق المتكلم بقدرة السامع على إعادة النظم لنظم هو الكلام بطريقة مباشرة لا تحتاج إلى إعادة نظم.

ب. الحذف: الأصل في الكلام أن تذكر كل عناصر الجملة على ما تقتضيه صناعة النحو، غير أن المتكلم قد يحذف بعضها إن علم أن السامع يستطيع أن يُقدِّر اللفظ المحذوف اعتمادًا على علمه باللغة وعلى سياق الحال، ومن ذلك قول عبد الله بن سلمة الغامدي –وهو شاعر مخضرم– يصف فرسًا:

مُتَقَارِبِ الثَّفِنَاتِ ضَيْقٍ زَوْرُهُ *** رَحْبِ اللَّبَانِ شَدِيدِ طَيِّ ضَرِيسِ[viii]

الثفنات: ما يصيب الأرض من قوائم الدابة. اللبان: الصدر.

قال البطليوسي مبينا الحذف في هذا البيت: «وقوله: (شَدِيدِ طَيِّ ضَرِيسِ): تقديره: شديدٌ طيُّ ضريسِه، كما تقول مررت برجل حسنٍ لونُ خدِّه، ولا بد من هذا التقدير، ليكون في الصفة ضمير يعود إلى الموصوف. ثم حذف الضمير، ونقل الصفة عن الطي إلى الموصوف قبلها، وخفض الطي بإضافة شديد إليه، ولم يعوض الألف واللام من الضمير، **ثقة بفهم السامع**، وكان ينبغي أن يقول شديد طي الضريس، فصار كقولك مررت برجلٍ حسنٍ لونُ خدٍّ. والقياس: حسنٍ لونُ الخَدِّ[ix]» فلما علم المتكلم أن السامع يفهم بأنه قد شبه جوف الفرس بالضريس (البئر المطوية بالحجارة)، ثم بالغ في ذلك حتى حذف المشبه وعوضه بالمشبه به، فقال: شديد طي ضريسه أي جوفه واسعة، ثم حذف الضمير، ولم يعوضه بـ(أل) التعريف، فلما علم أن السامع يعرف هذا، أقدم على هذا النظم وترك للسامع إعادة النظم على ما يقتضيه القياس.

والحذف باب واسع تصعب الإحاطة به في هذا المقال، ولا بأس أن أضيف مثالًا ثانيًا ليتضح أثر الثقة بفهم السامع في نظم الكلام، قال الزركشي (ت٧٩٤هـ): «وقد يُحذف السؤال **ثقة بفهم السامع** بتقديره، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ (يونس: ٣٤) فإنه لا يستقيم أن يكون السؤال والجواب من واحد فتعين أن يكون ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ جوابَ سؤال، كأنهم سألوا لما سمعوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ﴿مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ﴾، فأجابهم الله عز وجل ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ فترك ذكر السؤال، ونظيره قوله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ﴾ (يونس: ٣٥)[x]» المقصود هنا بالسامع هو قارئ القرآن الكريم الذي يعلم أن الجواب الوارد في الآيتين الكريمتين هو جواب سؤال غير مذكور، وقد يذهب ذهن القارئ الفاضل إلى أن هذا الأسلوب خصيصة قرآنية لعلم الله بما في نفوس الناس فيجيبهم قبل أن يسألوا، وليس الأمر كذلك، إنما هذا الأسلوب معروف في كلام العرب، قال سيبويه: «أما بدل المعرفة من النكرة فقولك: مررت برجلٍ عبدِ الله. كأنه قيل له: بمن مررت؟ أو ظنَّ أنه يقال له ذاك، فأبدل مكانه ما هو أعرف منه[xi]» ومن شواهد الكتاب وهو للراعي (ت٩٠هـ):

وَمَا صَرَمْتُكِ حَتَّى قُلْتِ مُعْلِنَةً *** لاَ نَاقَةٌ لِيَ فِي هَذَا وَلاَ جَمَلُ[xii]

قال الرماني (ت٣٨٤هـ): «فهذا جوابُ: أناقةٌ لكِ في هذا أمْ جَمَلٌ؟ فقالت: لا ناقةٌ لي في هذا ولا جَمَلٌ[xiii]» غير أن الشاعر (المتكلم) حذف السؤال لعلمه بأن السامع يدرك ذلك بقرائن متوفرة لديه منها علامة الإعراب التي تراها في (ناقةٌ) و(جملُ) [xiv]،

والأصل في الكلام أن يقال: (وَمَا صَرَمْتُكِ حتى سُئلتِ: أَنَاقةٌ أم جملٌ لكِ في هذا؟ فقلتِ معلنةً: لاَ نَاقَةٌ لِيَ فِي هَذَا وَلاَ جَمَلُ) وإنما أقدمَ المتكلم على اختصار الكلام وحذف السؤال ثقة منه بفهم السامع.

ج. الإضمار: عرفه الكفوي (ت١٠٩٤هـ) بقوله: «والإضمار: ما ترك ذكره من اللفظ وهو مراد بالنية[xv]» فقد يُحذف اللفظ ويُعوض بضمير ظاهر أو مستتر، وإنما يضمر المتكلم اللفظ في بعض الحالات لثقته بفهم السامع، قال ابن الشجري (ت٥٤٢هـ) متحدثًا عن حالات إضمار الغائب: «وأقول: إن إضمار الغائب مستعمل في كلام العرب على أربعة أوجه: الأول: عود الضمير إلى مذكور قبله... والثاني: توجيه الضمير إلى مذكور بعده... والثالث: رجوع الضمير إلى معلوم قام قوّة العلم به، وارتفاع اللّبس فيه بدليل لفظيّ أو معنويّ مقام تقدّم الذّكر له، فأضمروه اختصارًا أو **ثقة بفهم السامع**، كقوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ (سورة ص: ٣٢) أضمر الشمس لدلالة ذكر بِٱلۡعَشِيِّ عليها، من حيث [كان] ابتداء العشيّ بعد زوال الشّمس... والرابع: إضمار غائب لا يعود على مذكور ولا معلوم...[xvi]» ومثله قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنۡ عَلَيۡهَا فَانٍ﴾ (الرحمن: ٢٦) ففي الآية الأولى أضمر الفاعل، وفي الآية الثانية أضمر المجرور، وقد يضمر غيرهما من الملفوظات وإن كان عمدة في الجملة، قال الشنفرى (ت٧٠ق.هـ):

ثَلَاثَةُ أَصْحَابٍ، فُؤَادٌ مُشَيَّعٌ *** وَأَبْيَضُ إِصْلِيتٌ، وَصَفْرَاءُ عَيْطَلُ

هَتُوفٌ مِنَ المُلْسِ المُتُونِ يُزِينُهَا *** رَصَائِعُ قَد نِيطَتْ إِلَيْهَا وَمِحْمَلُ[xvii]

فقد ذهب بعض شراح لامية العرب إلى أن (هتوف) خبر والمبتدأ مضمر تقديره (هي) العائد على القوس، ولا بد من أن الشاعر نظم كلامه على الوجه الذي تراه لثقته بفهم السامع، ولعلمه بأنه قادر على ملء الفراغ اعتمادًا على ما يعرفه من سنن العرب في كلامها، ودرايته بحال الشاعر، ورجوعه إلى الألفاظ المذكورة في القصيدة مثل (قلب مشيع) أي شجاع و(أبيض إصليت) أي السيف، و(صفراء عيطل) أي صفراء طويلة، فيستنتج وهو العارف ببيئة العرب وأساليبها أنه يقصد بقوله: (هتوف) القوس ولا يشك في ذلك إطلاقًا، ثم إنه يواصل قراءة القصيدة فيجد الشاعر يقول بعد هذين البيتين:

إِذَا زَلَّ عَنْهَا السَّهْمُ حَنَّتْ كَأَنَّهَا *** مُرَزَّأَةٌ ثَكْلَى تَرِنُّ وتُعولُ[xviii]

فيجد في (عنها) ضميرًا متصلًا وفي (حنت) ضميرًا مستترًا يعودان على القوس، ويجد كلمة (السهم) التي تقطع الشك باليقين، وتمنع كل احتمال قد يخامر ذهن السامع فيذهب إلى أن اللفظ المضمر شيء آخر غير القوس، فيصبح في مثل هذه الحالة اللفظ المضمر واللفظ المنطوق سواء، ولو لم تكن هذه القرائن التي أشرت إليها لما وثق الشاعر بفهم السامع، فلا يجد بدًّا من ذكر ما أضمر وبذلك يتغير نظمه الذي تراه.

د. العدد: من حسن النظم أن يختار المتكلم العدد في بعض الألفاظ فيفرد بعضها، ويثني بعضها، ويجمع بعضها على ما تقتضيه قواعد اللغة العربية، غير أن المتكلم قد يخالف الأعراف النحوية فيفرد الجمع أو يجمع المفرد، والسامع يرد الكلمة إلى عددها الصحيح اعتمادًا على قرائن لغوية أو غير لغوية، وإنما يُقدِم المتكلم على ذلك لعلمه المسبق بقدرة السامع على الاستنتاج والاستنباط، وثقته بفهمه المعنَى المقصودَ، قال الطيبي (ت٧٤٣هـ) شارحًا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس شيء أحب إلى الله من قطرتين، وأثرين: قطرة دموع من خشية الله، وقطرة دم يراق في سبيل الله. وأما الأثران: فأثر في سبيل الله، وأثر في فريضة من فرائض الله تعالى): «قوله: ((قطرة دموع)) أي قطراتها، فلما أضيفت إلي الجمع أفردت؛ ثقة بفهم السامع[xix]» وإن وردت كلمة (قطرة) مفردة فإن السامع يفهمها جمعًا لعلمه بأن الدموع لا تتكون من قطرة واحدة، ومثل ذلك ما ورد في قول عقيل بن عُلَّفَة المري (ت١٠٠هـ):

وَكَانَ بَنُو فَزَارَةَ شَرَّ عَمٍّ *** وَكُنْتُ لَهُمْ كَشَرِّ بَنِي الأَخِينَا[xx]

إنما قال: عمٍّ، بصيغة المفرد لعلمه بأن السامع سيفهم منها الجمع اعتمادًا على ورود جمع قبلها (بنو فزارة) إذ يستحيل عُرفًا أن تكون قبيلة بأكملها رجلًا واحدًا، ولو خشي أن يلتبس الأمر على السامع لقال: شر أعمام. وهذا الضرب من الكلام نطق به القرآن الكريم في كثير من المواضع، كقوله عز وجل: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ (الفرقان: ٧٤) أي أئمة، وقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا﴾ (النساء: ٠٤) أي أنفسًا، وكما ترى في كل الأمثلة يوجد جمع يستدل به السامع على أن المفرد المذكور يقصد به الجمع وهي بالترتيب: (دموع)، (بنو فزارة)، (اجعلنا)، (طبن) لذلك يثق المتكلم بفهم السامع ويورد الكلمة مفردة وهو يقصد بها الجمع.

هـ. التوسع في معاني الألفاظ: تدل الألفاظ في **الأصل** على دلالة محددة لا تتعداها إلى غيرها، غير أن المتكلم قد يستعملها للدلالة على معنى غير الذي وضعت له اتساعًا منه لثقته بفهم السامع، وهذا ما يسمى في البلاغة بالمجاز، قال المعلمي (ت١٣٨٦هـ) متحدثًا عن السلف: «كانوا يتسامحون في التعبير؛ **ثقةً بفهم السامع**، فربمَّا فسَّروا الكلمة بلازمها، أو ببعض ما يدخل تحت عمومها، أو غير ذلك مما تدلُّ عليه في الجملة[xxi]» ومعلوم أن السامع يعتمد على علاقات وقرائن للانتقال من المعنى المجازي إلى المعنى الحقيقي، لذلك يتوسع المتكلم في معاني الكلمات دون أن يخشى وقوع السامع في اللبس، وهذا الباب أوسع من أن أمثل لكل نوع منه بمثال مع شرح وجه الثقة وأسبابها، ولكنني أكتفي بمثال واحد وعليه يقاس غيره، قال قُرَيْطُ بْنُ أُنَيف وهو شاعر جاهلي:

قَوْمٌ إِذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُم *** طَارُوا إِلَيْه زَرَافَاتٍ وَوِحْدَانَا[xxii]

فالسامع يدرك بأن لا وجود للناجذين ولا للطيران لعلمه بخصائص الشر على الحقيقة، وخصائص القوم على الحقيقة أيضًا، ويدرك إدراكًا لا يرقى إليه الشك أن المتكلم لا يقصد الظاهر من الكلام، وإنما قصد شيئًا من المبالغة، فصوَّرَ الشرَّ في صورة حيوان مفترس مُقْدِمٍ على التهام القوم كما يلتهم السبع فريسته، وبيّن سرعة القوم في الهجوم عليه، إذ لم يذهبوا إليه مشيًا ولا جريًا وإنما طاروا إليه شجاعة منهم وإقدامًا من غير تردد، والأمر كما ترى يتلخص في كون المتكلم يقول كلامًا فيعيد السامع تفسيره اعتمادًا على معلوماته السابقة واستنادًا على ملكته اللغوية ليصل إلى ما أراده المتكلم بالضبط، وما جعل المتكلم يسلك هذا الطريق هو علمه المسبق بقدرة السامع على التفسير وثقته بفهمه.

ولا بد في هذا المقام من بيان أمر وهو أن المسوغ للمتكلم التوسع في معاني الألفاظ هو المبدأ اللساني "**اللغة وضع واستعمال**" فالمعنى الحقيقي هو الوضع، والمعنى المجازي –في هذا الموضع– هو الاستعمال، والسياق اللغوي وغير اللغوي هو الذي يحدد معنى اللفظ المقصود من بين ما يحتمله من معان، قال عبد الرحمن الحاج صالح (ت١٤٣٨هـ): «فكما هو معلوم للفظة الواحدة مدلول وضعي أو أصلي، بل أكثر من مدلول أصلي وهو المعنى أو المعاني التي وضع اللفظ بإزائها في اللغة أي في الوضع. أما في الاستعمال أي عند استعمال المتكلم للغة لهذه اللفظة في عملية خطابية، وحال خطابية معينة فليس لها عندئذ إلا مدلول واحد ليس غير... فإن اللفظ في اللغة غير اللفظة في الاستعمال أي في الخطاب الواحد الخاص الذي لا يريد المتكلم باستعمالها إلا معنى واحدًا ويكون له باختياره لها دون غيرها غرض خاص، وهذا المدلول الوحيد قد يكون أحد المدلولات الموضوعة له أو مدلولًا آخر مرتبطًا بالأول ارتباط **اللزوم** مثل **المجاز والاستعارة والكناية**[xxiii]» هذا الارتباط الذي أشار إليه الحاج صالح بين الوضع والاستعمال هو الذي يعتمده السامع ليفهم مقصود المتكلم دون أن يضل السبيل.

هذه هي الحالات التي استطعت جمعها والتي تؤثر فيها ثقة المتكلم بفهم السامع في نظم الكلام، وبقي سؤال قد يثيره القارئ الكريم، فرأيت أنه من الضروري الإجابة عنه، وهو: ألا يخطئ المتكلم التقدير، فيثق بفهم السامع وهو لا يفهم، فتكون ثقته في غير محلها؟

والجواب عن هذا السؤال: إن المتكلم يعلم حالة السامع من خلال ما يراه من قرائن وما يعلمه من تفاصيل عنه، ولهذا تجد البلاغيين يذهبون إلى أن المتكلم يخاطب السامع بضرب معين من الخبر حسب موقفه منه، إن كان خالي الذهن أو مترددًا أو منكرًا، فكما يعلم المتكلم موقف السامع من الخبر يعلم كذلك قدرته على الفهم أو عدمها، ومع ذلك؛ يمكن أن يخطئ التقدير، وهذا أمر بديهي، يعرفه العالم بسنن الألسن بعلمه، والعامي بفطرته، ولكنه في حاجة إلى بيان وتوضيح لما له من علاقة بموضوع هذا المقال، وليس لي بد من تجاوزه وإغفاله، وهو متمثل أساسًا في تغيير المتكلم نظم كلامه، واستبدال بعض مفرداته في حال عجز المستمع عن فهم المقصود، وكل من تدبر كلام الناس في أسواقهم ونواديهم سمع شخصًا يطلب التوضيح فيعيد المتكلم المعنى بنظم مختلف عن النظم الأول، ويظهر هذا الصنيع بشكل أوضح في التعليم، إذ يعيد الأستاذ الفكرة الغامضة لدى تلامذته بتغيير نظم كلامه، فيحدث الفهم بنظم ولا يحدث بنظم آخر وإن كان المعنى العام واحدًا، ولو لم يخطئ المتكلم التقدير لما أحوج السامع إلى السؤال، ولنظم كلامه من الوهلة الأولى بالشكل الذي يفهمه السامع دون استفسار، قال ابن جني (ت٣٩٢هـ): «وكان أبو علي –رحمه الله– إذا عبر عن معنى بلفظ ما فلم يفهم القارئ عليه، وأعاد ذلك المعنى عينه بلفظ غيره ففهمه، يقول: هذا إذا رأى ابنه في قميص أحمر عرفه؛ فإن رآه في قميص كُحليٍّ لم يعرفه[xxiv]» وهذا دليل قاطع على وجود علاقة وطيدة بين الفهم والنظم، وإنما يتفطن المتكلم إلى مدى قدرة السامع على الفهم فينظم كلامه على الوجه الذي يحقق الإفهام، فإن ظن السَّامِعَ يفهم نظمًا فلم يفهم وطلب منه التوضيح، غيَّر النظم الأول وجاء بنظم ثان أوضح وأبسط من الأول.

وثمة سؤال آخر غير الذي ذكرته سابقًا، وهو: أيفرق السامع بين الكلام الذي نُظِمَ بناء على ثقة المتكلم بفهم السامع وبين الكلام الذي نظم بناء على الأصل؟

وهنا أقول: إن السامع أحيانًا لا يفرق بين الأمرين، فقد يعتقد أن المتكلم قد أقدم على اللف والنشر، أو على الحذف، أو على الإضمار، أو على التصرف في العدد، أو على التوسع ثقة منه بفهم السامع وهو لم يفعل شيئًا من ذلك، أو يكون المتكلم قد أقدم على اللف والنشر مثلًا، فيعتقد السامع أنه أقدم على الحذف، فينجم عن ذلك سوء فهم للكلام، وسأذكر في الجدول (١) مثالًا من القرآن الكريم:

الآية الكريمة	معناها في حالة اللف والنشر	معناها في حالة الحذف
﴿حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ﴾ (البقرة: 214)	المؤمنون يسألون: متى نصر الله؟ الرسول يجيب: ألا إن نصر الله قريب.	الرسول والمؤمنون يسألون: متى نصر الله؟ والله يجيب: ألا إن نصر الله قريب.

الجدول (١) يبين خطأ السامع في تقدير النظم الناتج عن ثقة المتكلم بفهمه

ذكر القرطبي المعنيين المشار إليهما في الجدول في تفسيره[xxv]، فمعنى الآية الكريمة يختلف –كما ترى– باختلاف ما يظنه السامع في الحالة التي اعتمدها المتكلم عند ثقته بفهم السامع، ولا يمكن أن يكون الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا

معه هم الذين يقولون: متى نصر الله، وفي الوقت نفسه هم الذين يقولون: ألا إن نصر الله قريب، لاستحالة صدور الجواب من السائل نفسه في مثل هذه الحالة وهذا تمام الجواب عن السؤالين.

خاتمة: يحسن بي تلخيص أهم ما ذكرته في هذا العرض لتجمع الأفكار في ذهن القارئ، وترسخ في ذاكرته دون تجشمه إعادة قراءة المقال كاملًا فأقول:

– يستطيع المتكلم معرفة القدرات الفكرية التي يملكها السامع، أذكي هو أم غبي؟ وأعالم هو أم جاهل؟ وأفصيح هو أم عيي؟ وذلك من خلال القرائن التي بين يديه، فإن هو علم قدراته الفكرية استطاع معرفة المواطن التي يثق فيها بفهمه من المواطن التي لا يثق.

– ينظم المتكلم كلامه بناء على ثقته بفهم السامع أو عدمها، فإن وثق بفهمه عدل عن الأصل النحوي واللغوي، وإن لم يثق بفهمه نظم الكلام على أصل القواعد النحوية واللغوية فوافق الوضع.

– يلجأ المتكلم عند ثقته بفهم السامع إلى **خمس حالات** من التصرف في نظم الكلام هي: اللف والنشر، الحذف، الإضمار، التصرف في العدد، التوسع في معاني الألفاظ.

– يمكن تفسير ما سماه ابن جني (شجاعة العربية) بثقة المتكلم بفهم السامع، إذ يقدم المتكلم بكل جرأة وبكل شجاعة على العدول على القواعد النحوية والدلالات الأصلية للكلمات لثقته بفهم السامع.

– يعيد السامع نظم الكلام في ذهنه ليصل إلى المعنى المقصود، فيفك اللف والنشر، ويعيد اللفظ المحذوف، ويظهر اللفظ المضمر وما شابه ذلك، فيكون قد شارك في بناء الكلام فيشعر باللذة، وهذا سبب تفاضل كلامين، فكلما كانت مشاركة السامع في إعادة بناء الكلام أكبر كان أحسن ما لم يضر ذلك بالمعنى المقصود.

– يمكن للمتكلم أن يخطئ التقدير فيثق بفهم شخص وهو لا يفهم، فيضطر إلى إعادة نظم كلامه إن لاحظ بأن السامع لم يحسن الفهم عنه، وهذا كثير في العملية التعليمية.

– يمكن للسامع أن يخطئ في إعادة بناء النظم فينتج عن ذلك تعدد الدلالات أو ما يسمى في النقد الحديث تعدد القراءات.

هذه أهم النتائج التي توصلت إليها من دراستي هذا الموضوع، وهو ما يزال في حاجة إلى إثراء واهتمام.

الهوامش:

[i]– أبو بشر عمرو بن قنبر سيبويه، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، ط١، بيروت، دس، ج٣، ص٣٢١.

[ii]– أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أحمد الدالي، ط٣. بيروت: ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، مؤسسة الرسالة، ج١، ص٥٣١.

[iii]– عمر بن أبي ربيعة، ديوان عمر بن أبي ربيعة، تح: بشير يموت، ط١. بيروت: ١٣٥٣هـ، ١٩٣٤م، المكتبة الأهلية في بيروت للطبع والترجمة والتأليف والنشر.

[iv]– أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، الكامل في اللغة والأدب، ج١، ص١٦٦.

[v]– امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٥. القاهرة: دس، دار المعارف، ص٣٨.

[vi]– أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، تح: محمد رضوان الداية، ط٣. دمشق: ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر، ص٥٠.

[vii]– أبو القاسم إبراهيم بن محمد الأفليلي، شرح شعر المتنبي، تح: مصطفى عليان، ط١. بيروت: ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، مؤسسة الرسالة، السفر الأول، ج٢، ص١١٤.

[viii]– أبو العباس المفضل بن محمد الضبي، ديوان المفضليات، تح: كارلوس يعقوب لايل، دط. بيروت: ١٩٢٠م، مطبعة الآباء اليسوعيين، ص١٩١.

[ix]– أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تح: مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، دط. مصر: ١٩٩٦م، مطبعة دار الكتب المصرية، ج٣، ص١٠٦، ١٠٧.

[x]– بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دط. القاهرة: دس، دار التراث، ج٤، ص٤٦، ٤٧.

[xi]– أبو بشر عمرو بن قنبر سيبويه، الكتاب، ج٢، ص١٤.

[xii]– نفسه، ج٢، ص٢٩٥.

[xiii]– الحسن علي بن عيسى الرماني، شرح كتاب سيبويه، تح: سيف بن عبد الرحمن بن ناصر العريفي (رسالة دكتوراه) إشراف تركي بن سهو العتيبي، المملكة العربية السعودية: ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ص٤٠٧.

[xiv]– دلت علامة الرفع في (ناقةٌ) و(جملُ) على وجود سؤال محذوف وردت فيه اللفظتان مرفوعتين، وهذا ما يسمى (الحكاية)، قال سيبويه : «اعلم أنَّ أهل الحجاز يقولون إذا قال الرجلُ رأيتُ زيداً: مَنْ زيداً؟ وإذا قال مررتُ بزيدٍ قالوا: من زيدٍ؟ وإذا قال: هذا عبد الله قالوا: منْ عبدُ الله؟ وأما بنو تميم فيرفعون على كل حال. وهو أقيس القولين. فأمّا أهل الحجاز فإنهم حملوا قولهم على أنهم حكَوا ما تكلَّم به المسئول، كما قال بعض العرب: دعنا من تمرتان، على الحكاية لقوله: ما عنده تمرتان. وسمعتُ عربيا مرّة يقول لرجل سأله فقال: أليس قرشيا؟ فقال ليس بقرشيا، حكاية لقوله» سيبويه، الكتاب، ج٢، ص٤١٣. ولو لم تكن حكاية لسؤال محذوف لوردت اللفظتان منصوبتين.

[xv]– أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات، ط٢. بيروت: ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ص٣٨٤.

[xvi]– هبة الله بن علي بن محمد العلوي، أمالي ابن الشجري، تح: محمود محمد الطناحي، ط١. القاهرة: ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، مكتبة الخانجي، ص٨٩– ٩١.

[xvii]– السيد إبراهيم الرضوي، شرح لامية العرب، تح: أسماء محمد حسن هيتو، ط١. دمشق: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، دار الفارابي، ص٥٨.

[xviii]– نفسه.

[xix]– شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد الطيبي، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، تح: عبد الحميد هنداوي، ط١. مكة المكرمة: ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، مكتبة نزار مصطفى الباز، ج٨، ص٢٦٥٢.

[xx]– أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها وواريها، تح: بشار عواد معروف، ط١. بيروت: ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، دار الغرب الإسلامي، ج١٣، ص٥٩٠.

[xxi]– عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله وتحقيق معنى التوحيد والشرك بالله، تح: عثمان بن معلم محمود بن شيخ علي، دط. جدة: ١٤٣٤هـ، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ج١، ص٧٥٥.

[xxii]– أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة، تح: أحمد حسن بسج، ط١. بيروت: ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية، ص١٢.

[xxiii]– عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، دط. الجزائر: ٢٠١٢م، موفم للنشر، ج١، ص٣٤٠، ٣٤١.

[xxiv]– أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دط. بيروت: دس، دار الكتب المصرية، ج٢، ص٤٦٨.

[xxv]– ينظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تح عبد الله المحسن التركي ومحمد رضوان عرقسوسي، ط١. بيروت: ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، دار الرسالة، ج٣، ص٤١٢.

قائمة المصادر والمراجع:

المصحف الشريف برواية حفص عن عاصم

١. ابن أبي ربيعة، عمر، ديوان عمر بن أبي ربيعة، تح: بشير يموت، ط١. بيروت: ١٣٥٣هـ، ١٩٣٤م، المكتبة الأهلية في بيروت للطبع والترجمة والتأليف والنشر.

٢. ابن جني، أبو الفتح عثمان، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دط. بيروت: دس، دار الكتب المصرية.

٣. ابن الشجري، هبة الله بن علي بن محمد العلوي، أمالي ابن الشجري، تح: محمود محمد الطناحي، ط١. القاهرة: ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م، مكتبة الخانجي.

٤. أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، ديوان الحماسة، تح: أحمد حسن بسج، ط١. بيروت: ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية.

٥. الأفليلي، أبو القاسم إبراهيم بن محمد، شرح شعر المتنبي، تح: مصطفى عليان، ط١. بيروت: ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، مؤسسة الرسالة.

٦. امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٥. القاهرة: دس، دار المعارف.

٧. البطليوسي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تح: مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، دط. مصر: ١٩٩٦م، مطبعة دار الكتب المصرية.

٨. البطليوسي، أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد، الإنصاف في التنبيه على المعاني والأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم، تح: محمد رضوان الداية، ط٣. دمشق: ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.

٩. البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي الخطيب، تاريخ مدينة السلام وأخبار محدثيها وذكر قطانها العلماء من غير أهلها وواريها، تح: بشار عواد معروف، ط١. بيروت: ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، دار الغرب الإسلامي.

١٠. الحاج صالح، عبد الرحمن، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، دط. الجزائر: ٢٠١٢م، موفم للنشر.

١١. الرماني، الحسن علي بن عيسى، شرح كتاب سيبويه، تح: سيف بن عبد الرحمن بن ناصر العريفي (رسالة دكتوراه) إشراف تركي بن سهو العتيبي، المملكة العربية السعودية: ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

١٢. الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دط. القاهرة: دس، دار التراث.

١٣. سيبويه، أبو بشر عمرو بن قنبر، الكتاب، تح: عبد السلام محمد هارون، ، ط١. بيروت: دس، دار الجيل.

١٤. السيد إبراهيم الرضوي، شرح لامية العرب، تح: أسماء محمد حسن هيتو، ط١. دمشق: ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م، دار الفارابي.

١٥. الضبي، أبو العباس المفضل بن محمد ، ديوان المفضليات، تح: كارلوس يعقوب لايل، دط. بيروت: ١٩٢٠م، مطبعة الآباء اليسوعيين.

١٦. الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله بن محمد، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح، تح: عبد الحميد هنداوي، ط١. مكة المكرمة: ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، مكتبة نزار مصطفى الباز.

١٧. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، تح عبد الله المحسن التركي ومحمد رضوان عرقسوسي، ط١. بيروت: ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، دار الرسالة.

١٨. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، الكليات، ط٢. بيروت: ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع.

١٩. المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد، الكامل في اللغة والأدب، تح: محمد أحمد الدالي، ط٣. بيروت: ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، مؤسسة الرسالة.

٢٠. المعلمي، عبد الرحمن بن يحيى، رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله وتحقيق معنى التوحيد والشرك بالله، تح: عثمان بن معلم محمود بن شيخ علي، دط. جدة: ١٤٣٤هـ، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.